

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة السابعة - العدد الثامن والعشرون - شتاء ١٣٩٦ ش / كانون الأول ٢٠١٧ م

ص ١٥٢ - ١٠١

الترميز في الشعر الفلسطيني المقاوم؛ مجموعة العصف المأكول الشعرية أنموذجا

عباس يدللهى فارساني*

الملخص

يستهدف البحث دراسة ظاهرة الترميز بمستوياته المختلفة في الشعر الفلسطيني المقاوم. يحاول أدب المقاومة إزالة الستار عن وجه العدو الغاشم والكشف عن خباثته واضطغانه ضد الشعوب المضطهدة. ومن هنا يسعى بكل ما لديه من الإمكانيات والطاقات اللغوية التعبير عمّا ألم بالشعوب من مؤامرات وفسائس. فالتجأ إلى لغة الترميز والإبانة غير المباشرة خوف التعذيب والتكال. استخدم الشاعر الفلسطيني تقنية الترميز كأداة ناجعة للتعبير عن المواقف الفكرية والمشاعر والأحاسيس المكبوتة وتصوير ما حلّ بالبلد من تعسف الكيان الصهيوني وما قام به من مؤامرات وممارسات إجرامية بحق الشعب المضطهد. تمّ إعداد هذا البحث وفق المنهج الوصفي التحليلي معتمداً فيه على المصادر الأدبية في مجال الشعر الفلسطيني الحديث خاصة المدونة الشعرية المسماة بـ"العصف المأكول" بأسرها التي تشتمل في طياتها على عدد غير قليل من المقطوعات الشعرية المختلفة التي حاول الشعراء الفلسطينيون من خلالها تصوير المأساة الفلسطينية والإنصاح عمّا ألم بهذا الشعب من ممارسات عدوانية ومجازر بشعة. استخدم الشعراء تقنية الترميز كأداة طبيعة للتعبير عما خامرهم من أحاسيس ومشاعر داخلية وما اتناهم من مشاعر حزينة ومؤلمة. من ثمّ تنوعت وتشعبت مصادر الرمز لديهم من التاريخية، والدينية، والطبيعية، والأدبية. أخيراً خلص البحث إلى أنّ عملية الترميز في هذه المدونة الشعرية تنطوي على أغراض أساسية وهامة، منها التأثير في المتلقّي وإثارة مشاعره وخلق الوجدان المشترك تجاه المحاور الواردة في خارطة النصّ الشعري.

الكلمات الدليلية: الشعر الفلسطيني الحديث، الرمز، الكيان الصهيوني، قضية الاحتلال، العصف المأكول.

*. أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد جمران أهواز، إيران.

farsiabas@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٦/١٢/٢ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٦/٨/١٨ ش

مقدمة

تعتبر المقاومة أو حركة الانتفاضة التي قام بها الشعب الفلسطيني ضد الاعتداء الإسرائيلي من أهمّ الراوفا الفكرية والأدبية التي أثرت الأدب الفلسطيني في كافة مستوياته الفكرية والحضارية وأخصبته. طبعاً إنّ قضية الاحتلال والمأساة الفلسطينية فتحت آفاقاً رحبة أمام الشعراء والكتاب في الأدب الفلسطيني الحديث، ومن ثمّ جعل أدب المقاومة والصمود ضمن الفروع الأدبية السامية والإنسانية التي شعر بها هذا الشعب بكل وجوده وجعله يعبر عن كوامنه وأحاسيسه بكل ما لديه من طاقات لغوية وإمكانيات فكرية لرفض القهر والظلم الخانق والزيف. فالذى لا شك فيه أنّ هذا النمط من الأدب يعمد إلى التحرير واستعادة كل ما سلب الشعوب والأمم والخلاص من نير الاستعباد والاستغلال.

إذا أمعنا النظر في أدب المقاومة بين الشعوب المختلفة نجد أنّ هذه الشعوب تخلّصت من نير الاحتلال والنكبة ونهضت بنفسنا من القهر والسلب، إلّا أنّنا نجد أنّ فلسطين حاولت من سنة ١٩٤٧م إلى يومنا الراهن التخلص من الاحتلال الصهيوني، فمن هذا المنطلق ظلّت المقاومة من أهمّ محاورها الشعرية وصارت موضوعاً شعرياً مستقلاً ضمن المقطوعات الشعرية وظهرت من خلالها فنون شعرية مستحدثة كأدب الطفل، أدب الرحلة والنزوح، أدب اللجوء. إذن، يتمحور معظم القصائد والمقطوعات حول التضحية والبطولة والشهادة والتحرير.

عمد الشاعر الحديث إلى توظيف تقنية الرمز في اللغة الشعرية لما فيها من تبادل مجالات الإدراك بين المحسوس والمعنوي وإخفاء المعنى، فمن هنا شعف بها وأعطى لها دوراً بارزاً في النسيج الشعري، وحاول من خلالها التعبير عن التجربة الشعرية والمقدرة اللغوية والبراعة في التعبير. انطلاقاً من هذا الموقف، يعتبر الرمز من الوسائل الفنية التي تمّ توظيفها في الشعر العربي الحديث توظيفاً بنائياً لكي يجعل الشاعر يعبر عن مواقفه وأفكاره ليحدث تواصلاً جديداً بينه والمتلقى. بغضّ النظر عن ظاهرة الترميز في الشعر العربي الحديث بصورة عامّة والشعر الفلسطيني الحديث بصورة خاصة، إنّ ما يسترعى الانتباه أنّ هذا التوظيف أصبح من ضروريات التعبير الفني وأدواته الطيعة

حيث عجزت اللغة المباشرة والصريحة عن تعميق الفكرة وخلق فهم مشترك بين الشاعر والمتلقى.

رمى شعراء المقاومة إلى توظيف هذه التقنية للتعبير عن قضية الاحتلال والمأساة الفلسطينية للتعبير عن معاناة قومية وتجارب إنسانية مكثفة وتصوير ما حلّ بالبلد من ويلات ونكبات، ومن ثمّ فتحت هذه الأداة التعبيرية آفاقاً جديدة في الشعر الفلسطيني الحديث وشحنته بطاقات حيوية ودلالات حيّة ترقى بالأدب الفلسطيني إلى مستويات عليا حيث تمكّنه من تكوين صور إيحائية تنطوي على شحنات عاطفية ونفسية وفنية. سوف نحاول بعونه تعالى في هذه الدراسة تحليل الأنماط المختلفة لتقنية الرمز في المجموعة الشعرية المسماة بـ"العصف المأكول" التي تنطوي على مقطوعات شعرية في أدب المقاومة معتمدين على المنهج الوصفي التحليلي. تضمّ هذه المجموعة الشعرية بين دفتيها عدداً غير قليل من القصائد التي تثير في كيان الإنسان الحماسة ولواعج الانتماء إلى الهوية الإسلامية والذّب عن التراث الديني والإسلامي التليد تجاه العدوان الصهيوني من جانب، ومن جانب آخر حاول الشعراء من خلالها تصوير ما حلّ بالشعب الفلسطيني من التقتيل وإهراق دماء الأبرياء والتشريد من النساء والأطفال. لا ريب أنّ شعراء المقاومة في هذه المدونة الشعرية حاولوا تدويل القضية الفلسطينية وإخراجها من نطاق قومي ضيق وذمّ الشعوب المسلمة التي تقاعست عن نصرة الشعب الفلسطيني.

أسئلة البحث

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن أهمّ الأسئلة التي تخامر المتلقى ضمن البحث، ومن أهمها ما يلي:

١- لماذا عمد الشاعر الفلسطيني المقاوم إلى توظيف الرمز ضمن خارطة النصّ الشعري؟

٢- كيف وُفق الشاعر عبر النسيج الشعري توظيف التقنيات المختلفة للرمز التي

تنسجم مع الغرض الذي رمى إليه؟

٣- ما العلاقة الوطيدة بين الرمز وما ألمّ بالشاعر الفلسطيني من الواقع المحيط به؟

٤- ما هو أبرز مستويات الترميز ومصادره ضمن المجموعة الشعرية المسماة

بالعصف المأكول؟

٥- ما الصلة بين الهوية الإسلامية وقضية النكبة من جانب، وتوظيف الرمز في ثنايا المقطوعات الشعرية من جانب آخر؟

خلفية البحث

لم يتطرق الباحثون والدارسون إلى دراسة الرمز وعملية الترميز في هذه المجموعة الشعرية المسماة بالعصف المأكول ولم تجر دراسة مستقلة قائمة بذاتها في هذا الموضوع، وهذه أول دراسة أجريت في مجال تقنية الترميز في هذه المدونة الشعرية لتسليط الأضواء على الأنماط المختلفة للرمز في الديوان ومصادره المتضاربة. لقد عالج جمّ غير قليل من الكتاب والباحثين دراسة الشعر الفلسطيني من جوانب وزوايا مختلفة، إلا أنّهم لم يتناولوا قضية الترميز ومستوياته المختلفة وما تحمل من معان ودلالات في المجموعة الشعرية المسماة بالعصف المأكول.

من أهمّ الدراسات التي تمّ نشرها حول هذه المجموعة الشعرية ما يلي:

١- ألفاظ النصر في ديوان العصف المأكول دراسة لغوية. جهاد يوسف إبراهيم العرجاء وعباس يداللهي فارساني. مجلة دراسات الأدب المعاصر. جامعة جيرفت. العدد السادس والعشرون. السنة السابعة. ١٣٩٤. صص ٣٢-٩.

تطرق الكاتبان في البحث إلى دراسة الألفاظ التي تدلّ على معنى الانتصار في هذه المدونة الشعرية ومقارنتها بنفس المعنى الذي ورد في القرآن الكريم.

٢- التناص القرآني في ديوان العصف المأكول. محمد مصطفى كلاب. مجلة الجامعة الإسلامية. غزة. فلسطين. مج ٢٤. العدد الثاني. ٢٠١٦م، صص ٤١-٢٣.

عالج الكاتب ضمن المقال قضية التأثير القرآني في إثراء النص الشعري ضمن هذه المدونة الشعرية.

٣- الرموز التاريخية والدينية والأسطورية في شعر محمود درويش. محمد فؤاد السلطان. مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية)، مج ٤، العدد الأول، ٢٠١٠م، صص ٣٦-١.

تناول الكاتب في هذا المقال تأثير المصادر الثلاثة في شعر محمود درويش بوصفه رائداً لشعر المقاومة ودور هذه المصادر في بثّ فكرة المقاومة.

٤- موتيف الأشجار في شعر محمود درويش، دراسة إحصائية وتحليلية بين النخل، والزيتون والبرتقال. كبرى روشنفكر، خليل برويني، حامد بورحشمتي. مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها. العدد ٤٣، ٢٠١٧م، صص ٧٦-٦٥.

عالج الباحثون في هذا المقال تأثير هذه الأشجار الثلاثة في إنتاج المعنى ودورها في تقويم النص الأدبي.

٥- التكرار في الشعر الفلسطيني الحديث (مجموعة العصف المأكول الشعرية أنموذجا). عباس يدللهي فارساني ومحمود شكيب أنصاري. مجلة إضاءات نقدية في الأدبين العربي والفارسي. جامعة آزاد الإسلامية. كرج. (إيران). السنة السابعة. العدد ٢٦، حزيران ٢٠١٧م، صص ٨٤-٦١.

عالج الباحثان في هذا المقال الأنماط المختلفة لتقنية التكرار ودورها في إنتاج المعنى في الشعر الفلسطيني المعاصر. سوف نحاول بعونه تعالى في هذا البحث دراسة توظيف الرمز عبر هذه المجموعة الشعرية المذكور أعلاها، وسنبيّن أنّ شعراء المقاومة حاولوا عبر توظيف الترميز تصوير ما حلّ بالبلد من ثورات ونكبات والتعبير عن الأحاسيس والمشاعر المكبوتة والهواجس الدفينة وإزالة الستار عن وجه العدو الشرس وما قام به من دسائس وممارسات إجرامية بشعة ومجازر ضدّ الشعب المسلم.

منهج البحث

تمّ إعداد البحث على أساس المنهج الوصفي التحليلي معتمداً فيه على المصادر الأدبية في الشعر الفلسطيني الحديث خاصة ديوان "العصف المأكول" لتحليل تقنية الرمز ونماذجها المختلفة فيه.

نظرة إلى ظاهرة الرمز في الشعر العربي الحديث

يعتبر مصطلح الرمز من المصطلحات التي تعددت تعاريفها كما تنوعت واختلفت

مصادره، إذ تباين موقف النقاد في تحديد أنواع الرمز. فعلى سبيل المثال قسم أرسطو الرمز حسب الوظيفة إلى ثلاثة أنواع: الرمز النظرى أو المنطقى، الرمز العملى، والرمز الشعري أو الجمالى (جودة نصر، ١٩٧٨م: ١٩) وأمّا "أبرامز" فقد قسمه إلى الرمز التقليدى أو العامّ والرمز الخاص أو الشخصى. (هانى، ٢٠٠٦م: ١٩) نالت قضية الرمز فى النقد الأدبى الحديث اهتماماً كبيراً من قبل النقاد، فكل ناقد يجدده حسب رأيه وموقفه ووجهة نظره.

إذا تأملنا فى مصادر الرمز وينايبعها فى الشعر العربى الحديث نجد أنّ المعجم اللغوى يرأس هذه المصادر، فالشاعر الحديث على ثقة بأنّ المفردات اللغوية تنبغى لأنّ تكون رمزاً دون أى فرق بينها، ومن ثمّ يأخذ اللفظة من معناها الاصطلاحى. المصدر الثانى هو التراث الدينى بأكمله، ويتخذ الشاعر الحديث الدين والثوابت العقائدية أداة فعّالة للتعبير عن المعاناة الشخصية وموقفه الخاص تجاه الوجود والميتافيزيقيا. المصدر الثالث هو الأسطورة حيث تمتع به الشاعر للإبانة عن مخزونه المعنوى ليضفى عليه نمطاً من دلالات جديدة لتجسيد المعاناة والتجربة الذاتية كالإفصاح عن الاغتراب وفلسفة الوجود. المصدر الرابع هو التاريخ والوقائع التاريخية لخلق مواقف جديدة تنسجم مع عصره والظروف المحيطة به ليتعامل معها متخذاً منها رموزاً قادرة على الإيجاء بغية خلق معادل موضوعى لنفسه.

المصدر الخامس المكونات الطبيعية كرموز للحياة النفسية لئلبسها الشاعر ثوباً إنسانياً حياً ينبض بالحوية والنشاط معتمداً على ميزتى التجسيد والتشخيص. وأخيراً الواقع وما فيه من أحداث حياته الواعية واللاواعية وهو نفس الشاعر الحديث الذى يكتظ بالمواقف العصرية وأهواء ورغبات منشودة ومكبوتة.

مكانة الرمز فى الشعر الفلسطينى الحديث

وجد الشاعر الفلسطينى فى الرمز أداة ناجعة ووسيلة مؤثرة فى الإفصاح عن المعانى والمشاعر والأحاسيس الدفينة التى تعجز اللغة التقريرية المباشرة عن فهمها وإدراكها والتعبير عنها. لا ريب أنّ توظيف الشاعر للرموز يعدّ من أهمّ المرتكزات الفكرية

والروافد الثقافية التي تدلّ على سعة تجربته الشعرية والعلاقة المزدوجة بين التراث وخرطة النص من جانب، وبين الشاعر والمتلقّي من جانب آخر. إذن، فهذه العملية، أعنى توظيف الرمز، تمنح الشاعر قدرة فائقة وهائلة على فهم التجربة الإنسانية التي تعدّ أساساً لتصوير التجارب الذاتية التي عاناها طيلة الحياة. اتخذ الشاعر الفلسطيني من الرمز أداة طبيعة ومنفذاً مؤثرة لترسيم الواقع المؤلم والمحيط به بأسلوب الإيحاء والإشارة غير مباشر لإيصال الرسالة الشعرية والمهمّة العظيمة التي أخذها على عاتقه تجاه الشعب المضطهد.

لم يكن تبلور الرمز في الشعر الفلسطيني الحديث اعتباطياً ومحاكاة وتقليداً، بل كان تلقائياً يحمل في طياته التجارب الشخصية والذاتية، والأغراض القومية والشعبية و... ظهر الرمز في بنية القصيدة والمعطيات الأدبية إثر ضرورة واقعية ساقى الأدباء والشعراء مساق توظيفه كأداة للكشف عن مواقفهم وتقديم رؤاهم الفكرية والدينية والثقافية. كانت قضية الاحتلال الصهيوني وما قام به من قتل وتدمير وممارسات إرهابية مشينة والمجازر البشعة وفرض الحصار الثقافي وملاحقة المناضلين، وتحديد إقامتهم، من أهمّ البواعث التي دفعتهم نحو توظيف الرمز في الشعر الحديث. استطاع الشعراء والكتاب الفلسطينيون استخدام الرمز رغم هذه المصائب الجمة لتصوير ذلك الصراع المحتدم بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني، حيث يمكن القول إنّ الرمز نمط من أنماط السلوك الفني في ترسيم الحقيقة النابضة بالحياة وتخطى الرقابة من قبل النظام القائم.

مستويات الرمز في الشعر الفلسطيني المقاوم

إنّ المتأمل في الشعر الفلسطيني المقاوم يجد أنّ الشاعر يستلهم الرموز التي يعهدها مستمداً إيّاها من التراث الإنساني بشكل عام، والتي تحمل دلالات معينة كالرموز التاريخية والأسطورية والتراثية. يستعيد الشاعر المقاوم هذه الرموز ليكسبها طاقات إيحائية جديدة ويبرزها في ثوب قشيب ينفخ فيها الروح فتتماهى مع نصوصه الشعرية متخذاً إيّاها قناعاً يعبر من خلالها عن المواقف الفكرية والهواجس المكنونة والمشاعر

المكبوتة. نجد الشاعر أحياناً يعمد إلى توظيف الرموز الخاصة ليرتقى بها إلى مستوى إنساني أشمل والتي ضربت جذورها في البيئة الفلسطينية خاصة ومن ثم سجّل بهذا الاستخدام تطوراً ملحوظاً في أدب المقاومة بهذه المنطقة. من أهم هذه الرموز الخاصة النخلة، الحجر، الصاروخ، الطفل، والرموز المكانية كـ"حيفا" و"رفح" و... فشاعر المقاومة عندما يعمد إلى توظيف كلمات كالبحر، الياسمين، والجفاف و... فإنه يستخدم كلمات تمثل معنى ذات دلالة شعورية خاصة وأبعاد إيحائية. من هنا تمت هذه المفردات البسيطة بصلة وثيقة إلى كل ما يعاينيه الشاعر من تجارب شعرية تمنح الأشياء فحوى خاصة.

شغلت هذه الرموز حيزاً كبيراً في المتن الشعري، وهذا ليس بشيء غريب فقد تغنى معظم الشعراء في هذا المجتمع الإنساني بالثورة والنضال المستمر من أجل استعادة الأرض المسلوقة، ونراهم يتغنون بالوطن ومآثره ومآضيه المشرق وما آل إليه الأمر بعد الاحتلال الصهيوني. إذن هذه الرموز الخاصة تضاريس الواقع الثوري الذي ينبع من نفسية الشاعر إلى خارطة القصيدة من خلال وعي الشاعر بالوطن، فنراه يتخطى خطوة جديدة في التعامل مع الرموز فضلاً عن وجود المجال الرحب والفضاء المتسع ضمن القصيدة الفلسطينية الحديثة في توظيف الرموز الخاصة التي تخصب التجارب الشعرية والشعورية حيث تبعد القصيدة عن الذاتية. هذه الرموز الخاصة هو التعبير الواضح عن المشاعر والأحاسيس التي يرغب الشاعر الإبانة عنها، ومن ثم تعدّ تعبيراً صادقاً وحقيقياً عن التطورات الاجتماعية والسياسية التي يعيشها الشاعر.

مصادر الرمز في الشعر الفلسطيني الحديث

تنوعت وتشعبت مصادر الرمز في الشعر الفلسطيني المقاوم ما بين الدينية، التاريخية، الطبيعية، الأدبية والبيئة الثقافية والفكرية التي ترعرع فيها الشاعر الفلسطيني. نهل الشاعر من هذه الينابيع الثرة واستقى معظم محاوره الفكرية منها لتسليط الأضواء على واقعه المؤلم (سواء واقعه الخارجي المحيط به، أم الواقع النفسي وما فيه من مشاعر وأحاسيس ورؤى) لتعميق تجربته الشعرية والشعورية والتأثير على المتلقى وإشراكه في البوح بالمكونات الدفينة والمشاعر المكبوتة. وذلك لما تحمل آلية الترميز من أبعاد

دلالية وفنية ترقى بالشعر إلى مستويات سامية حيث يجعله قريباً من نفس المخاطب.

ديوان العصف المأكول في سطور

لايزال الشعر منذ أقدم العصور ذلك الوجد الجزل للشعراء والمتكلمين الذي ساعدهم على تعبير أحسن وأدقّ عمّا يجرى حولهم من أحداث ووقائع بغية تحريض المتلقى وتشويقهم وإيقاد الحماسة في الصدور. عمل الشعراء الفلسطينيين في عصرنا الراهن في مجال التوعية والتبصير ضدّ ما قام به الكيان الصهيوني في العالم والمنطقة من جرائم الحرب والمؤامرات والدسائس ضد الشعوب المسلمة خاصة الشعب الفلسطيني المضطهد. من ثمّ استخدموا فكرة المقاومة لصدّ هذه الهجمات العنيفة في العالم الإسلامي وكان لغة الشعر من أهمّ الوسائل والأدوات الطيبة في هذا المجال. قامت رابطة الكتّاب والأدباء الفلسطينيين في غزّة بتجميع القصائد التي قيلت في معركة العصف المأكول (٢٠١٤م) وأصدرتها في ديوان يحمل اسم المعركة (ديوان العصف المأكول). لقد قام المناضلون الفلسطينيون بعدة هجمات عنيفة وحروب طاحنة ضدّ الكيان الصهيوني حيث اشتهرت منها ثلاثة حروب، الأولى حجارة السّجيل (٢٠٠٨م)، والثانية الفرقان (٢٠١١م)، وأخيراً العصف المأكول (٢٠١٤م)، وهذه الحرب الأخيرة هي التي أثنخت في العدو الغاصب وفيها لحق المناضلون للعدو بالخسائر الفادحة في الأرواح والأموال، ومن هنا هذه المجموعة الشعرية تصوير حقيقي لتلك البطولات والانتصارات.

أنماط الرمز في ديوان العصف المأكول

لم تتبلور الرموز بكافّة مستوياتها في هذه المجموعة الشعرية بشكل عشوائي واعتباطي، بل استقى الشعراء معظم محاورهم الشعرية من الواقع المحيط بهم للإبانة عن تجربتهم الانفعالية التي يعانون والتي تتلائم مع الموقف الذي يريدون التعبير عنه. من ثمّ اختاروا الرمز بعناية واهتمام كبير. وفق الشاعر في عملية انتقاء الرموز بحيث تتلاحم مع حالته النفسية والانفعالية للإفصاح عن حنكته في اختيار مكونات رموزه وإتقانه على اختيارها وبنائها حيث تستطيع الرموز على تفجير الطاقات وتصوير الآفاق

الجديدة الرحبة. سوف نحاول بعونه تعالى في هذه الدراسة الكشف عن أهمّ مستويات الرمز ضمن هذه المدونة الشعرية قدر المستطاع.

يتبين لنا من خلال هذه المجموعة الشعرية أنّ مصادر الرمز ومستقاه تنوعت وتضاربت، فشعراء المقاومة حاولوا توظيف رموزهم المختلفة من المصادر المتضاربة كالدين، والتاريخ، والأدب والواقع، كما اختلفت العناصر التي استقوها من كل مصدر من هذه المصادر ما بين أماكن، أحداث، شخصيات وغيرها. من أهمّ الرموز المستخدمة ضمن هذه المجموعة الشعرية ما يلي: الرمز الديني، والرمز التاريخي، والرمز الأدبي، والرمز الواقعي والرمز اللوني.

الرمز الديني

استطاع الشاعر الفلسطيني من خلال توظيف الرموز الدينية أن يقيم الصلات الوثيقة بينه وبين التراث بشكل عام والتراث الديني بشكل خاص، وهو ينتمي إلى هذا التراث الديني المتأصل في الذات. كان الشاعر على ثقة بأنّ للمعتقدات الدينية تفاعلاً وتأثيراً بالغاً في وجدان الشعب، فاستخدم التراث الديني مع معطياته الثرة لأنّه يوحى بمعان كثيرة وعميقة تقدر على تصوير التجارب الإنسانية وإعادة نبض الحياة إلى الأمة لما فيه من دلالات تشفّ عن مواقف جديدة تثير في المجتمع تيارات الثورة والنضال لتحرير الوطن المسلوب.

من الواضح أنّ تفاعل الشاعر مع التراث الديني واستلهاه محاوره الفكرية كان نتيجة ما أصاب هذا الشعب المقاوم من ظلم وبطش وقهر. فوجد من خلاله ما يجدّ من الصراع الفكرى والسياسى وأخذ ينهل من مصادره الصافية رغم أنّ السلطة القامعة تحاول طمس التراث الديني ومحو هوية الشعب وسحق شخصيته العريقة وتجريده من المصادر العقائدية وقطع جذورها. هذا ما دفع الشاعر نحو الاعتصام بالتراث الديني والاحتماء به حيث شكّل هذا المصدر أهمّ مرتكز من المرتكزات الفكرية لديه وساهم في الاحتفاظ بملامحه وسمات شخصياته.

تنوعت وتشعبت هذه الرموز الدينية فى هذه المجموعة الشعرية، فمنها توظيف

أسماء الأنبياء والرسل كشخصية النبي (ص)، وإبراهيم (ع)، ويوسف (ع)، وموسى (ع)، وعيسى (ع)، ونوح (ع)، وأيوب (ع)، ومنها الشخصيات الدينية كـ"مريم" (س)، و"عمار"، و"بلال"، و"ياسر"، وأخيراً الحيوانات والطيور والعناصر الطبيعية التي أضفى الشاعر عليها نمطاً من الصبغة الدينية للقداسة والطهر ودعم تجربته وتجسيدها بشكل تام، كـ"براق"، "أبائيل" و"سجّيل". بناء على ذلك، اصطبغت هذه الرموز الطبيعية بالمثل الدينية ليربط الشاعر بينها وبين واقعه النفسى ويجد فيها كائنات ينبض بالحياة. فتجاوب معها ومن جرّاء ذلك ينمّ عن عالمه الداخلى وما خامره من هواجس وأحاسيس. نراه يعتمد بشكل كبير على الرموز الدينية لتكون وسيلة طيبة لطرح المواقف الشعرية والتطلعات المستقبلية ليخدم التراث الدينى ويؤصّله وصار توظيف الرمز تعبيراً عن أزمته الروحية والنفسية.

من نماذج الرمز الدينى ما ورد:

فتوقدت كنعانُ حين استلّه
وهو التمدد رغم أنّ حصاره
قيدٌ، وفك حصاره فى جملة
يا ربّ قد خذل الشقيقُ شقيقه
فأغث ليوسفَ، كم تأمر حوله
جنّناك من وجع نحبّ مامتنا
وقد ألقوا به فى الجبّ
يا وحدنا
لا يوسف يُؤوى إليه
كى ينجو بنا
يا وحدنا

(ديوان العصف المأكول، ٢٠١٤م: ٩٣)

من المعلوم أنّ الشاعر عمد أثناء المقطوعة إلى الاجتماع بين الرمز والمكونات الشعرية الأخرى وتفجير الطاقات الإيحائية والدلالية، وهذا ناجم عن وعى الشاعر

بدور الحضارة الإسلامية والمعطيات الدينية وما فيها من التجارب الإنسانية والشخصية معاً. نلاحظ من خلال النص أن الشاعر لم يقف على توظيف هذه التراث توظيفاً بحثاً، بل نراه يستقى معظم محاوره الفكرية منه ليكسب كلامه نمطاً من المصادقية. استوحى الشاعر قصة يوسف (ع) محاولاً منها التعبير عن رفض الواقع المرير والظلم الذي تعانيه الأمة الإسلامية لما وجد فيها في أجوائها مجالاً رحباً للتعبير عن الآلام الإنسانية وشدة المعاناة حيث لا يحتاج المتلقى إلى فهمها إلى مجهود كبير، فصار رمزاً للشعب الذي يعاني ويكابد مرارة الواقع المحيط به. نجد الشاعر يختار بعض المفردات الشعرية التي تدل على حالته النفسية والعاطفية التي تنسجم مع فضاء النص الشعري، منها (الجبّ، تقطّع، الحزن، الوجد والعجاف). تدل هذه المصاحبات اللغوية المشبعة بالدلالات النفسية على إثارة داخلية عاطفية في نفسية المخاطب، ومن ثمّ يمكن أن نقول إنّ اللغة «ليست رداء للفكر أو قالباً له وإناء يحتويه، وإنما الفكر نفسه مجسداً في ألفاظ لغوية.» (عيد، ١٩٧٩م: ٤٨)

نموذج آخر:

فتقطّعت أوصال زهرة قدسنا ومقام يوسف يشتكى التسيلا

يعقوب حزنك، والقميص دموعه لا شىء من وجع العجاف ليتقيه

(الديوان، السابق: ٩٧)

من الواضح عبر هذه الأسطر الشعرية أن الشاعر أقام صلات وثيقة بين التراث الديني وما حلّ بالشعب من مؤامرات ودسائس تفرّده في ساحة الحرب للإفصاح عن التمزق والسقوط الذي تعانيه الأمة الإسلامية والعربية. فهذه الرموز الدينية والمعطيات الإسلامية تعدّ رافداً هاماً من الروافد الدينية التي تقوم عليها البنية الشعرية وتعبّر بصورة واضحة عن تعامل الشاعر مع التراث الديني والإفصاح عن المقدرة الأدبية والفنية. نجد الشاعر خلال هذه المقطوعة يستخدم توظيف الرموز الدينية بمثابة قناع فعال لتمثيل ما ألمّ بالشعب الفلسطيني من قهر وزيف الواقع وإيديولوجية السلطة القهرية، ونراه يستمدّ خلال هذه الأسطر الشعرية صوراً تعيد إليه ذلك التوازن النفسى

والعاطفي المنعدم. (الحنصالي، ٢٠٠٥م: ٢٢)

ليس يوسف (ع) - رمز تحاذل الإخوان العرب ضدّ الفلسطينيين - ههنا سوى الفلسطيني الذي اكتظّ كيانه بكره إخوته العرب له، إذ إنهم لا يريدونه بينهم كباقي الإخوة، فلم يطقه أحد منهم. فراحوا يعتدون عليه ويحاولون المساس به جسدياً ومعنوياً. (الريحيات، ٢٠٠٩م: ١٢٦) نجد الشاعر في تضاعيف المقطوعة يمنح هذه الشخصية المباركة بُعداً عاماً ليتجاوز من خلالها عصره ليحقق نمطاً من قدرة التواصل مع القضايا الراهنة والواقع المعيش. لأنّ هذه المعطيات الفكرية تمثل الجذور الأساسية لتكوين المجتمع في مختلف المستويات. وصار رمز يوسف (ع) يحمل نبرة الأمل والرجاء في خلاص الشعب الفلسطيني من كافة الأزمات. حاول الشاعر خلال هذا الاستدعاء الديني الإبانة عن أهمّ المعالم الشخصية ليوسف (ع) وتمثيله في ثوب غير ثوبه البدائي حيث يواكب شخصيته وما انتابه من أزمات ونكبات بغية التعبير عن هواجسه الدفينة والواقع المعيش.

لاحظنا من خلال المقطوعة أنّ الشاعر استلهم التراث الديني وما فيه من تدفقات دلالية ولوحات فنية للتعبير عن الزمن الراهن والتفاعل مع الأحداث المحيطة به، إذ نراه يقيم علاقات متشابكة بين هذه الرموز والتفاعل الشعوري الذي انتابه واكتنظت بنية القصيدة بالشعور بالضيق والحذلان المهيمن عليه، فخلق من الرمز وسيلة لنقل هذه الأجواء العاطفية. يمثل اتصال الشاعر بالتراث الديني والمعطيات الفكرية هموم الشاعر وتجاربه الحديثة تجاه ما ألمّ بالبلد من دسائس وأحداث مرّة عاناها. انتقى الشاعر هذه الشخصيات الدينية للنهوض بالتجارب الإبداعية والتفاعل مع وجدان الشعب وصار هذا التراث أهمّ أداة طبيعة لتصوير ما حلّ بالشعب الفلسطيني من ظلم وتعسف. استثمر الشاعر هذه الشخصية القرآنية للإفصاح عن تلك المعاني والدلالات التي تتماهى مع معاناة الشعب الفلسطيني ليتحدّث عن معاناة أبنائه في السجون والزنازين.

الرمز التاريخي

اهتمّ الشاعر بالتاريخ واحتفى به لما يشتمل على تجارب إنسانية غنية وناطقة

بالحيوية ويعتبر مصدرًا هامًا من مصادر الإلهام والإبداع الفكرى. يلجأ الشاعر إلى «معين التاريخ فى عصور التردى والإحباط، إذ يتوجه الفنّان إلى التاريخ بحثًا عن المثل الأعلى، رغبة فى التعويض العاطفى، وربما رهبة من وطأة زمن العجز الذى يحياه، وهربًا إلى أحضان الماضى الذى يبدو مجيدًا أو مثاليًا بالقياس إلى الحاضر.» (زيادة، ١٩٩٤م: ٩٨) من ثمّ يمكن للتاريخ وعناصره الزمانية والمكانية أن يشكل ضمن اللغة الشعرية قدرة جمالية رمزية يصورها الشاعر من خلال عودته إلى الماضى وإعادة رموزه بحيث تنسجم مع المواقف الحديثة التى ينصهر الماضى فيها لكى يكون المستقبل. عمد الشاعر إلى استخدام التاريخ ووقائعه وأحداثه ليخلق منها أجواء رحبة ومتسعة تتمتع بجرية أكثر، إذ إنّه لا يستطيع التعبير عن الحقائق وتصوير الظروف الراهنة بلغة مباشرة ومكشوفة خوفًا من تعقيب وعقاب السلطة القامعة.

تنوعت الرموز التاريخية فى هذه المدونة الشعرية، فمنها ما تدلّ على المعالم الأثرية والمناطق التاريخية كـ"قبة الصخرة"، "كنعان"، "بابل"، "كعبة"، و"دمشق"، ومنها ما تدلّ على الشخصيات التاريخية، كـ"المعتصم"، "دقيانوس"، "فرعون"، "جنكيز"، "أبرهة"، "هتلر"، و"قبيلتى" "قريظة" و"بنى النضير".

من نماذج هذا الرمز ما يقول:

لكن حلًّا واحدًا متوقع	سيموت أبرهة ويفنى الفيل
والذكريات مع اليهود جميلة	جدًّا وهل لبنى النضير مثيل
وبنو قريظة كلهم جيراننا	والجار مهما جار فهو أصيل
ويهود خير لا يزال حديثهم	يروى فلا يرتاب فيه جهول

(الديوان، السابق: ٥٥)

إذا أمعنا النظر خلال هذه المقطوعة الشعرية نجد أنّ الشاعر عمد إلى توظيف التراث التاريخى لخلق نمط من التزامن والالتحام بين الماضى والزمن الراهن. شاع توظيف الرموز التاريخية فى الشعر العربى ولعل السبب يعود إلى الانكسارات والهزائم والقنوط الذى أصيبت بها الشعوب الإسلامية والمحاولات الفاشلة من أجل استعادة أجداد العرب، إذ «زخرت معظم البلدان العربية تحت الاستعمار والانتداب الأوروبى بعد سقوط

الدولة العثمانية ... بالإضافة إلى زرع الكيان الإسرائيلي في جسم الأمة، الذي شكّل وعياً قومياً موحداً لدى شعراءنا الذين أشادوا بالقضية واستخدموا القدس كرمز وقناع من أجل استنهاض الشعوب والدفاع عن الشرف المسلوب.» (عشرى زايد، ٢٠٠٦م: ١٢١)

من البديهي خلال هذه الأسطر الشعرية أنّ الشاعر لم يعمد إلى توظيف التراث التاريخي لتمثيل الأحداث والوقائع الغابرة فحسب، بل أراد من خلال هذا الاستدعاء تعميق التجربة الشعرية والشعورية والمقارنة بين الزمن السابق وما آل إليه أمر الشعب في العصر الراهن. انطلاقاً من هذا الموقف، نجد نمطاً من التطور الدلالي للرموز التاريخية داخل النسيج الشعري، فعلى سبيل المثال لم تكن قبيلة بني قريظة إحدى القبائل العربية القديمة فقط، بل تمّ استخدامها للتعبير عن معنى نقض العهد وعدم الوفاء به، فصارت رمزاً للرفض والتمرد.

نلاحظ عبر الأسطر الشعرية أنّ الشاعر يتعامل مع الموروث التاريخي لينسجم مع الرغبات دون أيّ ضغط جعله يستخدم هذا التراث للتليد. نراه ينطلق منه ليعبر عما يحامره من هواجس دفينّة ورغبات لم تتحقق بعد. فالرموز التاريخية لها أهمية قصوى في الحياة الاجتماعية والعملية الإبداعية لدى الشاعر لما يثرى النتاج الأدبي بدلالات وإيحاءات شتى تكتنّ بالتجارب الإنسانية والشخصية.

تبين لنا من خلال النصّ الشعري أنّ الشاعر أكسب شعره نمطاً من السمة التاريخية عشوراً على ملاذ آمن ليتمكن من التعبير عن رؤاه ومواقفه الفكرية وهمومه الوطنية خاصة قضية الاحتلال الصهيوني. ينسجم هذا الاستخدام مع طبيعة هذا الواقع من شخصيات ومواقف تاريخية.

يعدّ هذا الاستدعاء التاريخي بمثابة قناع فعّال يستخدمه الشاعر للتعبير عن المعاناة النفسية والروحية، لأنّه لا يستطيع نسيان المجد الأصيل للوطن والماضي المشرق، فصارت الشخصيات والرموز التاريخية كجسر التواصل بينه وبين المجتمع الإنساني الراهن المكبّل بالقيود. فمن ثمّ نرى أنّه يتخذ أبرهة ذات بُعد سلبي، رمزاً للكيان الصهيوني و"بنى قريظة" و"بنى النضير" رمزين للصهاينة المجدد والحكّام والأمم المتقاعسة عن

نصرة الشعب الفلسطيني. أراد الشاعر عبر عملية استدعاء الأحداث تصوير ماضى الشعب ومجده الملىء بالفخر والسيادة بغية خلق متنفس يخرج من دائرة الانكسار والانهازم نحو الفضاءات المكتنظة بالفخر والنصر والكرامة.

من الواضح أنّ الشاعر حاول عبر هذه المقطوعة الشعرية إدراج الشخصيات التاريخية فى كوامن اللغة الشعرية التى ترمى إلى إفراغ التاريخ من مغزاه القديم ووضعه فى إطار التقديس الذى يحافظ على الرمزية التاريخية، ليعبر من خلالها عن مشاكل المجتمع الإنسانى وأزماته والتنفيس عن واقعه المأزوم والمهزوم. فمن هنا تعالقت الصورة الرمزية مع تجربة الشاعر وأنتجا دلالة المعاناة والمفاضة.

تبين لنا من خلال هذه الأسطر أنّ الشاعر حاول التعبير عبرها عن التفاعل الفكرى والروحى مع التراث التاريخى الذى يعدّ مصدراً زاخراً ونبوعاً ثراً للتجربة الشعرية والشعورية. فالذى لا ريب فيه أنّ الشاعر أراد من خلال هذا الاستدعاء الإبانة عن تجربته الإبداعية التى تتسجم مع الواقع التاريخى المحيط به. نجد من خلال هذه الرموز والمكونات التاريخية (أبرهة، الفيل، اليهود، بنونضير وبنوقريظة) أنّ الشاعر عمد إلى توظيفها للتعبير عن إيضاح أمره وتسليط الأضواء على ما آل إليه أمر الوطن المسلوب وما يعيشه من ظروف تعسة. تمثل هذه الرموز التاريخية ضرباً من التفاعل الفكرى وتعبر بصورة واضحة عن المعاناة العاطفية والروحية ومدى تأثر الشاعر بها. فيبدو لنا من خلال النسيج الشعرى أنّ تنامى هذه الرموز يوافق ومواقفه الفكرية وتجاربه النفسية والذاتية التى اكتسبها عبر تجربة الاحتلال. وليست اليهود بشيء سوى رمز للكيان الصهيونى الذى يعرف بنقض العهد وعدم الالتزام بأى قانون وميثاق قومى ودولى. فلا غرو إذا أكثر الشاعر من توظيف الشخصيات أو الرموز التى تدلّ على معنى النقض والحيانة وعدم الثبات.

انطلاقاً من هذا الموقف، حاول عبر توظيف الشخصيات التاريخية تحقيق هدفين أساسيين: الأول إعطاء تجربته الشعرية والشعورية نمطاً من العراقة والأصالة، والثانى إضفاء دلالات جديدة على هذه الشخصيات ليكسبها حياة ذات أبعاد حيوية وديناميكية تعكس حالة الشاعر النفسية.

الرموز الطبيعية

تعتبر الطبيعة بكل ما فيها من مكونات إحدى المصادر الهامة للشاعر الفلسطيني الذي استقى منها معظم محاوره الفكرية، وشكلت مفرداتها المختلفة وعناصرها المتضاربة ينبوعاً زاخراً اعتمد عليه الشاعر وصارت مرتكزاً من المرتكزات الفكرية التي اتكأ عليها للتعبير عن همومه الوطنية والشعبية لترسيم كل ما أصاب هذا الشعب المقاوم من ظلم، وقتل واعتداء على الحقوق. اختار الشاعر الفلسطيني من الرموز الطبيعية ما تلاحم مع واقعه المحيط به وانسجم مع رؤيته ومواقفه الفكرية لاستبطان التجارب الحياتية، فمن ثم نجد نمطاً من التوافق والتلاءم بين الدلالة والسياق الشعري وأصبحت مظاهر الطبيعة رموزاً لحالة الشاعر الشعورية.

إنّ المعنى في هذه المجموعة الشعرية يجد أنّ مكونات الطبيعة حملت في طياتها دلالات محددة تضيف على خارطة النص لوناً من ألوان المصدقية والواقعية ولم تبق هذه العناصر في النص كما هي، بل تنبض بالحركة والديناميكية والحياة التي تناسب ورؤية الشاعر حيث تعبر عن مواقفه ومشاعره وعواطفه. هذه المكونات الطبيعية تخرج هذه العناصر من معناها المحدد وتسوق بها مساق الإيحاء حيث تُكسب النص الشعري طاقة إيحائية جديدة تضيف على النص رونقاً وطلاوة وثراء.

من نماذج هذا الرمز لفظة "النخل" أو "النخيل" في هذه المجموعة الشعرية التي وردت أكثر من عشرين مرة حيث يقول الشاعر:

فالفجر آتٍ، والحصارُ إلى الفنا والنصر نصرك، فاغرسيه نخيلاً

(الديوان، السابق: ٨)

لم يركع الزيتون فيك لغاصب يوماً ولا ألقى السلاح نخيلُ

(نفسه: ٥١)

قصفوا المخيم، إنَّ كلَّ شظية ستقيمُ في وجع الأرامل نخلة

(نفسه: ٨٤)

يتبين لنا من خلال النصّ الشعري أنّ الشاعر عندما يشعر بضيق الواقع المعيش وما اتنا به من ضغط نفسي وروحي، ساقه إلى البحث عن آفاق جديدة رحبة تمثّل

واقعه المؤلم تنفسياً عن الكآبة والسأم، ساعياً من خلال الترميز السيطرة على الضيق والاستبداد والاستلاب ليتجاوز انتكاسته ويرفض ما ألمَّ بالمجتمع الفلسطيني من هزائم وكوارث دامية. يريد الشاعر تأسيس مجتمع إنساني تمتد فيه العزة والحرية ويرفض الإجرام وقتل الأبرياء من غير سبب. حاول كسائر الشعراء في العالم الإسلامي أن يمارس حقّ التحرير والعيش لنفسه ومجتمعه. فمن هنا كثرت الرموز الطبيعية لديه وفي ذلك وعى بقيمة التراث الطبيعي ومكانته في تطوير الحاضر، لأنّ رؤية الشاعر ناجمة عن تلك الهوة الفاصلة بين ما هو واقع وبين ما هو مرجوّ حصوله في المستقبل.

تبين لنا من خلال هذه المقطوعة الشعرية أنّ المكونات الطبيعية تلعب دوراً هاماً وبارزاً في التعبير عن الهواجس والمكونات النفسية وكل ما خامر نفسية الشاعر من الأحداث والوقائع المؤلمة التي ألمّت بمسقط الرأس.

إنّ التأمل في هذا النسيج الشعري يجد أنّ الشاعر استخدم بعض المكونات الطبيعية التي توأكب ومسيرة الأحداث الراهنة في فلسطين المحتلة. وحاول من خلال توظيفها إثراء تجربته الشعرية حيث تعجز اللغة المباشرة التعبير عنها. وبذلك يخلق أجواء عاطفية يساهمها الشاعر والمتلقى معاً. من هذه الرموز الطبيعية لفظة "النخيل" التي تدلّ على المعاني التالية: انطلاق ثورة الشعب وتحقيق الأمل، استمرارية معاناة الإنسان الفلسطيني، المواقف المأساوية، التجذّر والأصالة، المقاومة والصمود، الصبر والشجاعة، الحصب والازدهار، الوطن المحتلّ. من هنا صارت النخلة رمزاً يلتجأ إليها كل من طرده الأعداء ولاحقه. كذلك ترمز لفظة "الزيتون" في المقطوعة إلى الحبّ القديم والإنسان الفلسطيني الذي هجر أيكه وغادر إلفه وحيداً. في الحقيقة يعدّ الزيتون رمزاً للحياة والارتباط بالأرض ثم يتفرع عن المعنى الديني المعنى الاجتماعي والوطني ليصير رمزاً للطمأنينة والسلام وديمومة الحياة. فالذي لا ريب فيه أنّ «ما يحثّ شعراء المقاومة على استخدام الزيتون رمزاً مقاوماً هو الحبّ للوطن.» (مقدم متقى، ١٣٩٦: ٢٦٦)

يعبر الزيتون خلال الأسطر الشعرية عن معنى الشهيد وصار رمزاً لكل من ينير الطريق ويزيل الدياجير ونجد الشاعر لم يقتصر على نقل هذه اللفظة فقط، بل عمد إلى توظيف بعض المظاهر الطبيعية داخل النسيج الشعري ك"الفجر"، "النخيل"، و"البحر"

[رمز الوطن]، لما تشيره الطبيعة في نفس المتلقّي من جمال والشوق والحنين. في الواقع يختفى صوت الشاعر ومواقفه وراء ستار صفيق من الرموز هروباً من الواقع المؤلم. وبذلك تُعتبر الرموز أداة طبيعة لاقتناص الواقع المحيط بالشاعر من أجل تغييره وإصلاح ما فيه من عيوب ومثالب ليصير نموذجاً يليق بالإنسان. ليست النخلة سوى تطابق بين الشاعر وشخصيته ومواقفه تجاه قضية الاحتلال وترسيم آلام الشعب وأشجانه. امتزجت لفظة النخلة بوجدان الشاعر وحملت في طياتها دلالات عميقة بما يفيضه قلب الشاعر من مشاعر وأحاسيس متداخلة. ارتفعت هذه الرموز إلى مصاف وجدان الشاعر وأصبحت وليدة رؤية الشاعر الخارجية للتوكيد على الأسى والألم الذي تغلغل في كيانه.

يتبين لنا عبر هذه المجموعة الشعرية أنّ المكونات الطبيعية تنقسم قسمين: صامته ومتحركة.

أمّا العناصر الصامته فتتسم بالسكون وعدم الحركة والحيوية وتشتمل على الزهور، الثمرات، فصول السنة والأشجار المختلفة والعناصر المتحركة على خلاف الثابتة تتسم بالحيوية والحركة والديناميكية وتتطوى على الحيوانات والطيور والزواحف. بناء على هذا، تشتمل هذه العناصر الطبيعية برمتها على الشحنات النفسية التي احتوت على تصورات الشاعر ونهوض تجاربه النفسية، فاختار الشاعر منها حيهاً وجامدها كوسيلة للتعبير وانتفاها لتتجاوب مع انفعالاته وتجاربه في أشكال محسوسة تحقّقاً لهدفه المنشود. نلاحظ من خلال توظيف هذه العناصر والمكونات الطبيعية أنّ الشاعر لم يستخدمها كمجرد شيء مادي ذات جمود وسكون، بل اتخذها ميداناً متسعاً لتغذية أفكاره وشحن نفحاته النفسية، فضلاً عمّا تضيفه الجوانب النفسية إلى الرمز من خصائص يلعب فيها النصّ الشعري دوراً محورياً وبارزاً في إثارة الإيحاء والدلالة. فالرموز الطبيعية في النصّ الشعري تتمتع بالحيوية والدينامية التي تمهّد السبيل للشاعر أن يتصرف فيها ويجوّرها من أجل خلق فضاءات جديدة تتسم بلمعات خاطفة عبر الدلالات.

من نماذج الرموز الطبيعية لفظة "الغراب" التي استخدمها الشاعر حيث يقول:

فتحرّكت غربانهم في جونا عمياء، تذبح فجرنا المأمولا

أرسلَ الغريبانَ ترمى بانْتقامَ فوق أطفال، نساء، والسُّعارة

(الديوان، السابق: ١٠٩)

صباح النَّار يُشعلُها غرابُ البين في غدنا

وفي أحلام من لبوا

...ومن تركوا عروس البحر للغريبان

وامتشقوا - كعادتهم - سيوف القول

(نفسه: ٤٧-٤٦)

من المعلوم خلال هذه الأسطر الشعرية أنّ المحور الأساس الذي تدور حوله الصورة الرمزية هو الكشف عن خيانة الكيان الصهيوني وما قام به من مؤامرات وجرائم بشعة ضد الشعب الفلسطيني العزل. فلفظة "الغراب" التي ترمز إلى الكيان الصهيوني الغاشم فارقت دلالتها المعهودة إلى دلالة جديدة معاصرة تشير إلى السلب والنهب من القوى المتعسفة. حرص الشاعر من خلال توظيف الرمز على خلق أجواء مناسبة ومؤاتية تمهد السبيل لإعطاء المتلقي ظروفاً تعبيرية تُشركه في معاناته الروحية والنفسية.

هذه الرموز الطبيعية تحتزن دلالات عميقة حيث تعدّ حقيقة تتجاوز الواقع ويؤدّي توظيفها إلى دلالات أخرى في الإبداع الجديد. ومن ثمّ تصوير واقعاً جديداً شريطة أن تتوفر فيها تلك المقدرة الفنية واللغوية التي تضيء عليها أجواء إيحائية. انطلاقاً من هذا الموقف، أتاح توظيف الرمز داخل النسيج الشعري فرصة مؤاتية ومناسبة للخوض في التراث بغية العثور على المكونات الفكرية والتراثية التي تنسجم مع المواقف الحاضرة.

الرمز الأدبي

يعدّ التراث الأدبي إحدى المرتكزات الفكرية والمصادر الغنية للشاعر الفلسطيني الحديث الذي استخدمه للإثراء الأدبي والتنوع الثقافي ضمن الحضارة الحديثة ليضفي على أدبه لوناً من العمق والقيمة ليكون هذا التراث الضخم حقلاً خصباً يناسب مواقفه الفكرية الحديثة فالشاعر لا يتمتع بالتراث الأدبي كما هو، بل يستغلّ معطياته الفكرية استغلالاً فنياً ورمزياً يناسب مع الحاضر. (فاروقشريف، ١٩٧٦م: ٨٧)

إنّ الممعن في التراث الأدبي يجد أنّه يكتنّز بالتجارب القيمة والأحداث والشخصيات التي استرعت انتباه الكتاب والأدباء عبر العصور المختلفة، وصار بمثابة الينبوع التريّ والمعين الزاخر الذي استلهم الشاعر الحديث منه مصادر الفكرة. اتخذ الشاعر المقاوم هذا التراث الأدبي بمثابة أداة طيعة للتعبير عن مواقفه وتجاربه الذاتية والشخصية وكل ما يتلاحم مع رؤاه الحديثة حيث هذه الرموز الأدبية تتركز على الأزمنة الغابرة وتمثّل الظروف الحديثة في المجتمع الفلسطيني.

نلاحظ من خلال هذه المجموعة الشعرية أنّ الشاعر استخدم هذه الرموز الأدبية لاستفادة منها لتعريف الواقع الأدبي وإجراء المقارنة بين البارحة واليوم، وتارة يقوم بتحوير طفيف لما ينسجم مع مواقفه تجاه الظروف التعسفة التي ألمت بالمجتمع. فعمد إلى توظيف الشخصيات الأدبية كـ"الفرزدق"، و"أبيتمام" وشخصية "شيلوك" (شخصية يهودى انتهازي استغلالي في مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير). يتخذ الشاعر هذه الشخصيات أقنعة توجّه بما تخدم تجربته الشعرية المعاصرة، إذ يرى فيها ما يتلاحم مع تجربته الذاتية، فكلاهما قد عانيا من التشريد والسجن والقهر، ولكنهما رغم المصائب والويلات تحمّلا واصطبرا لتحقيق الانتصار والعزّة. يندمج صوت الشاعر مع صوت الشخصيات الواردة تمام الاندماج ويتحدان في التجارب الشعرية والذاتية. نجد الشاعر يستوحى هذا الموقف النفسى مع ما يحتوى على السمة الوجدانية وحملها مشاعره وعواطفه المكبوتة.

من نماذج هذه الرموز الأدبية، "الفرزدق" الذي تمّ ذكره في القصيدة المعنونة "فرزدقية القسام" حيث يقول الشاعر المقاوم:

«إنّ الذى سمك السماء بنى لنا» جيشاً لواحد الجبال تُزلزل
جيشٌ بناه لنا العزّ وما بنى عزُّ السماء فإنّه لا يخذل
جيشٌ ما القدسُ نادت خلتهم «موجاً كأنّهم الجرادُ المرسل»

(الديوان، السابق: ١٠٤)

«السيفُ أُصدقُ أبناء من الكتب» لم ترجع الحقّ فى يوم مناشدة

تهذى سجاح ولم تصدق مسيلمة ما بعد أحمد يا أهل الصدق من نبيّ

(نفسه: ١٠٧)

ومن توّسم فيك الخير كان كمن يرجو السلامة في أنياب ضرغام

(نفسه: ١٥٧)

القدس كم حظيت بأنغام التغمّي والتمنّي والمشاعر والبيان

ويرددون

القدس أولى القبلتين

ثم ثالثاً للحرمين

... عاد شيلوك

(نفسه: ٣٣)

من الواضح خلال النص أنّ الشاعر عمد إلى توظيف الرمز الأدبي ليمنحه بُعداً حتى يجعله قادراً على تجاوز الواقع المرير ويضفي على الشعر ظلالاً من التجربة الذاتية التي تصطبغ بالعصرية الجديدة، إذ يمنحه دلالات جديدة تنسجم مع روح الواقع. المفردات النضوية (السماء، السيف، الموج وأحمد) تحمل دلالات متعددة ومختلفة داخل الإطار الشعري. فقد تدلّ على معنى نفسى يستهدف التعبير عن المشاعر والأحاسيس الباطنية والإيماءات المختلفة التي نستشفها من خلال النص الشعري. اجتهد الشاعر في التعبير عن الشخصيات الأدبية وأحسن توظيفها للإفصاح عن واقعه النفسى المنهار. يشكّل الإحساس الكامن وراء هذه الرموز بؤرة معاناة الشاعر. وبهذا يتكوّن واقع الشاعر وواقع وطنه اللذين يمثّلان تجربته الشعرية.

من البديهي أنّ الشاعر استلهم خلال الأسطر الشعرية التراث الأدبي القديم - أعنى

النقائض بين جرير والفرزدق - حيث يقول الفرزدق:

إنّ الذى سمك السماء بنى لنا أحلامنا تَرُنُّ الجبال رزانة

بيتاً دعائمه أعزّ وأطول وتخالنا جنّاً، إذا ما نجهلُ

(فاعور، ١٩٨٧م: ٤٩١)

لاحظنا عبر هذه الأسطر الشعرية أنّ الشاعر المقاوم عمد إلى توظيف هذه الشخصيات الأدبية ليسقطها على الواقع المحيط به لتسليط الأضواء على علاقة الشاعر المعاصر بالسلطة القامعة وينسجم استخدام هذه الشخصيات مع المواقف المشتركة بينهما. تتمّ هذه الشخصيات عن مواقف الشاعر الحديثة وتزيل الستار عن محنة الشاعر وما عانى طيلة الحياة من كبت الحرّيات ورقابة الأنظمة المستبدة القائمة التي تلاحق الشاعر. تعبّر هذه الشخصيات عن نمط من التقابل بين الحاضر والماضي. فالشاعر يلمح عبر هذا التوظيف إلى الإنسان الفلسطيني من أبناء القدس الذي لا يرضح تجاه الظلم والبطش، والذي يساعد المناضلين والأبطال في ساحة الحرب رغم الإجراءات القمعية للسلطة الحاكمة. ليست هذه الشخصيات سوى إصرار الشعب وإلحاحه على الحياة والبقا والدفاع عن الوطن والتضحية من أجله والتمسك بالهوية الدينية والإسلامية. وفقّ الشاعر في توظيف الشخصيات الأدبية التي تتسم بالبطولة والشجاعة والوطنية وخوض ساحات الحرب الدامية ضد العدو المحتلّ. فهذه الانتكاسات الكثيرة جعلت الشاعر الحديث يبحث عن رموز أدبية وتراثية ليعبّر في تضاعيفها عن التوازع النفسية ومناجات الذات.

أيضاً تأثر بالموروث الأدبي لدى أبي تمام في قصيدته عن فتح عمورية حيث يقول:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدِّ واللعب

(الخطيب التبريزي، ١٩٩٤م: ٣٢)

تشتمل هذه الشخصيات الأدبية على دلالات وإشعاعات مؤثرة تمكّن الشاعر على التعبير عن الفكرة والموقف الذي يرمى إليه وهو تصوير السياسة القمعية والممارسات الإجرامية والمجازر البشعة التي قام بها الكيان الصهيوني ضدّ الشعب الفلسطيني.

استلهم الشاعر في التعبير عن قوة المناضلين في مواجهة العدو الصهيوني "أنياب

ضرغام" متأثراً بالموروث الفكري لدى المتنبي حيث يقول:

إذا رأيت نيوبَ الليث بارزةً فلا تظننّ أنّ الليث يبتسمُ

(العكبري، ١٩٣٩م: ٣٤٥)

أصبحت هذه الرموز الأدبية صوت الشاعر المعبّر عن مشاكل عصره والظروف

المختلفة التي أمت بالمجتمع الإنساني، فانتقل الشاعر من التعبير عن التراث الأدبي القديم إلى التعبير عن الموروث للإفصاح عن مشاكل الإنسان اليومي، ويريد عبر هذه العملية استلهام التجارب المتماثلة بين الشاعر القديم والشاعر الحديث رغم اختلاف الزمان والمكان. ومن هنا صارت عملية توظيف بؤرة رمزية في النصّ وتكسب دلالات متنوعة حسب استدعاءها داخل القصيدة.

الرمز المستوحى من الواقع

يعدّ الواقع بمظاهره المختلفة مادة خصبة وأرضية مؤاتية لبثّ فكرة الدفاع والمقاومة ومصدرًا هامًا للإلهام الشعري لدى الشاعر الفلسطيني المقاوم حيث يستغلّ معطياته ويستلهم منه رموزه ليكشف عن مواقفه ورؤاه المختلفة تجاه الواقع المؤلم والمحيط به. اتخذ الشاعر الواقع وعناصره الإبداعية لتصوير مقاساته الفكرية وتجربته الانفعالية والمشارع والأحاسيس التي تتفاعل داخله. تتعدّى هذه الرموز الواقع عبر ما يضيف عليها الشاعر من دلالات إيجابية وشحنات فكرية وملامح فنية جديدة تجعلها أكثر خصوبة وعمقًا. يعتبر موضوع المقاومة والصمود من أهمّ المرتكزات الفكرية والمحاور الشعرية التي يتمحور حولها الشعر الفلسطيني الحديث بشكل عام، وفي هذه المجموعة الشعرية بشكل خاص حيث أصبحت صورة نمطية مألوفة في الشعر الفلسطيني الذي يحمل فكرة استمرارية الحياة، تواصل الأجيال، والنضال من أجل انتزاع الوطن.

تتمحور الرموز المستوحاة من الواقع حول القادة والشهداء والذين بذلوا كل غالٍ وثمين من أجل تحرير الوطن واستمرار الصمود والمقاومة وترأسهم شخصية "عزّ الدين القسام"، "كتائب الأقصى"، وشهداء الانتفاضة كـ "زكيم"، "برهوم"، "أبوشماله"، و"عطار"، وشهادتهم رمز يجسد قوة الفعل الثوري وحضوره في المقاومة الفلسطينية. من الواضح أنّ الشاعر الحديث لم يعتمد عبر توظيفها إلى مجرد نقل أسمائهم، بل أراد من خلال ذلك تخليد ذكرهم وضخّ دم التضحية والحياة في عروق الشعب الذي تبلور عبر تفاعل الشاعر مع الواقع ومحاولة اختراق الواقع.

إنّ المعنى في الشعر الفلسطيني المقاوم يجد أنّ صورة الشهيد كرمز للانبعاث تصدر

من مصدرين، هما الواقع الاجتماعي والنظرة الأسطورية من الحقيقة الدينية حيث ترتفع بالشهيد في صور أدبية. فلا تكاد مجموعة من قصائد المقاومة تخلو من مفردات لها علاقة وطيدة بمعاني الشهادة.

استطاع الشاعر عبر توظيف الرموز الواقعية تطوير تجربته الشعرية وتعميقها وتوسيع طاقاته التعبيرية، فخلق من خلال هذه الرموز آفاقاً جديدة تركت بصمات واضحة على ثورته الأدبية.

من أمثلة الرمز الواقعي ما ورد في الديوان حيث يقول الشاعر:

من نخبة القسّام جندٍ محمّدٍ	ومن الضفادع همّةً وعقولُ
خنزيرهم وكبيرهم بملاجيء	قسّامنا، أقبل بنصرٍ آن
يا نخبة القسّام عطشى حرثنا	والغيث في غاراتكم محمولُ
قسامنا يزن الجبال رزاة	وتخاله جنّا إذا ما يجهلُ
ولافحاً من لظى النيران يُنزله	على رؤوس العدا صاروخ قسّام

(الديوان، السابق: ١٩٠)

يبدو لنا عبر هذه الأسطر الشعرية أنّ الشاعر المقاوم يرفض الواقع تماماً ويبدل بكل غال وثمين من أجل التغيير والتطوير، فيعمل على التحرر بأسره. من هنا صار التعبير عن الرمز لديه هو الملاذ الوحيد من أجل نقد الحياة الاجتماعية والسياسية وتعزية زيفها. تحولت الألفاظ عبر النسيج الشعري إلى إشارات انفعالية يعبر كل واحد منها عن التجارب والمواقف الشعرية والشعورية. حاول الشاعر عبر هذا الحشد اللغوي، تمثيل هيمنة المناضلين وهوان المعتدين وذمهم. فخرجت الألفاظ اللغوية داخل النسيج الشعري عن دلالاتها الوضعية المعهودة لتحمل دلالات جديدة معاصرة (القسّام رمز للتضحية والفداء، الضفادع رمز للهوان والذلّ، والخنزير رمز للهوان والعجز).

لا مشادة أنّ كتابت الأفضى وعزّ الدين القسّام لعباً دوراً بارزاً ومحورياً في بث فكرة المقاومة والذبّ عن الهوية الدينية والإسلامية في المجتمع الفلسطيني وضخّ الدم في عروق الشعب. هؤلاء الشخصيات هم الذين تجلت فيهم روح الفداء والتضحية من أجل

التحرير والخلاص من برائن العدو الشرس. نلاحظ في هذه الأسطر الشعرية أنّ الشاعر عرج على الرمز المستمدّ من الواقع المحيط به وهذا التعرّيج ظهر مباشرةً دون أيّ تلميح ولا كناية. تعامل الشاعر مع الواقع وأخذ منه فكرة الإصرار على المثابرة والصمود، كما أخذ من السيرة النبوية (ص) رمزاً للمقاومة والتضحية، فجاء الرمز تجسيداً لمعنى الانبهار وولع الشاعر بقوة هؤلاء المغاوير الشجعان.

نلاحظ من خلال النصّ أنّ لغة النصّ تتسم بنمط من النضال والكفاح والمقاومة لتغمر النصّ الشعري وتهيمن بدلالاتها على سائر الدلالات المختلفة التي تخلق للقارئ أو المتلقّي فضاءات تعبيرية وإيحائية جديدة.

من الواضح عبر الأسطر الشعرية أنّ قيمة اللفظة (القسم) الواردة في النصّ الشعري تهيمن على سائر الألفاظ اللغوية الرامزة والموحية حيث تفصح عن موقف الشاعر المقاوم تجاه القوى المستبدة والمتعسفة. فالقسم أصبح رمزاً للشاعر وانتمائه الإيديولوجي، ومن ثمّ وجد الشاعر في الرمز أداة فعالة وطبيعة للتعبير عن حالته الوجدانية والعاطفية.

هنا يتعمق التعامل مع الرمز وصارت الدلالة مشحونة بالإيحاءات التي تمثّل ثقافة الشاعر وهيمنتها على بنية القصيدة وتلك القدرة الفائقة في انتقاء الرمز ورصد الواقع. (حشلاف، ٢٠٠٠م: ٣٤) كان توظيف الرموز الواقعية تحقيقاً للرغبة الملحة لدى الشاعر الفلسطيني في الانبعاث على مستوى الأمة الإسلامية باستلهاً نماذج الصلابة والمثابرة واستمداد الطاقات المخترنة والمختفية في التجارب الإنسانية. يستمدّ النصّ منها قدرته على إثارة المشاعر والتأثير في المخاطب، لأنّ الرمز وسيلة ناجعة في سبيل التعبير عن تجربة الشاعر وحالاته النفسية، فلا بدّ للشاعر «أن يلبأ إلى إثارة حالات شبيهة بها في نفس المتلقّي عن طريق الرمز القائم على تراسل الحواس». (أحمد، ١٩٧٨م: ١٣٥)

يعبّر هذا النمط من الرمز لدى الشاعر الثوري تعبيراً صارخاً عن الرغبة والاشتياق إلى الانعتاق من الاحتلال من جانب، وبلورة التجربة الفنية والذاتية وإعادة الصياغة بحيث تكشف عن الواقع المعيش من جانب آخر، إذ وجد في الرمز معيّنًا ثرياً من

الدلالات غنيًا بالإيحاءات. حاول الشاعر من خلال عملية الترميز أن يفتح آفاقًا جديدة للشعر للعثور على التأويلات والقراءات المختلفة.

الرمز اللوني

يعدّ اللون جزءًا من العالم المحيط بالإنسان الذي يدلّ في طياته على بعض المضامين والمفاهيم التي تتعلق بثقافة الأمم وكيوننة الحياة وبهجتها ويعطى النص قيمة فنية رائعة. لم ينحصر اللون في دائرته الاصطلاحية، بل تجاوز الحدود المعرفية ليكشف عن الجانب الدلالي الرمزي والتقديسي. فعلى سبيل المثال يشتمل اللون الأبيض على الطهارة والنقاء والأسود على التشاؤم وقس على هذا. إذن، فالخلفية الرمزية للألوان تنمّ عن دورها الباطني أو العاطفي وعلاقتها بالمشاعر والعواطف الداخلية، فليس اللون إلا تعبيرًا عن العواطف والأحاسيس المكبوتة ويتطور الإنسان وراء الألوان وفق التغيير الثقافي وما يصيبه من ظروف فكرية مختلفة.

ضربت عملية انتقاء الألوان جذورها في القدم ونجد أصداءها ضمن الأسطر الشعرية في القصيدة العربية الحديثة التي تلعب دورًا هامًا في بنائها وانسجامها، وأصبح اللون في القصيدة العربية الحديثة لغة رمزية ولم يقف عند حدود الدلالات البسيطة، بل تجاوزها إلى لغة الإشارة اللونية وقد قصد اللون فيها، وتمّ توظيفها على نحو جعل ازدحامًا وكثرة حتى في القصيدة الواحدة وإلى التوسع في توظيف اللون وقلبه. (الزواهره، ٢٠٠٨م: ١٨)

إنّ الممعن في هذه المجموعة الشعرية يجد أنّ اللون الأحمر أكثر استخدامًا وشيوعًا من سائر الألوان ولم تقتصر معاناة الشاعر الروحية والجسدية على البعد النفسي الشخصي، بل تجاوزت الحدود الشخصية لتشمل الشعب الفلسطيني. كان هذا اللون على مقربة من مأساة هذا الشعب زمنيًا ومكانيًا. اتسم معظم القصائد بلون الحماسة والثورة وألوان المعاناة التي تركت بصمات واضحة على الشعر الفلسطيني المقاوم، فضلًا عن النكبات والهزائم التي أصابت هذا الشعب. ومن هنا سيطر الشعور بالموت والضياع على معظم القصائد وتأثر الشاعر بهذه المظاهر والوقائع المؤلمة وانعكس ذلك

على عواطفه ومشاعره وتسرب إلى شعره.

تبلور هذا اللون في لفظة "الدّم" التي ترمز إلى الصمود والمقاومة.

من نماذج الترميز اللوني ما ورد في الديوان حيث يقول الشاعر:

يا دماء الفجر في

رفح الصّمود

وفى المعسكر

سيسجّل التاريخ

مجزرة بها

فاحت دماء الطهر

... نصرنا قد هلاّ

من نرف

دم الثائرين

تدلّي

من شهقة الأمّ

(الديوان، السابق: ١٤٥)

الواقع أنّ الشاعر عبر هذه الأسطر الشعرية امتاح من رؤاه البصرية وما آل إليه الوطن المسلوب من ثورات ونكبات في تشكيل هذه الصور البصرية المعبرة عن الرمز اللوني لما له من تأثير عميق في نفس المتلقّي حيث أصبح الهمّ الإنساني ضمن اهتماماته، وبذلك حاول أن يطرحه بأسلوب جميل ورشيق دون غموض ولا تكلف خاصّة في مواضيع الحياة الإنسانية.

إنّ البؤرة الدلالية (دماء الفجر، رفح، مجزرة، دماء الطهر، دم الثائرين، شهقة الأمّ) علامات تدلّ على ما آل إليه الوطن المسلوب الذي تعرّض لصنوف مختلفة من الإبادة والضميم والضياع حيث ورد هذا الضرب من اللون بشكل عادّي إلى جانب مفردات تعدّ من مرادفات الحمرة كالدّم ليدلّ على معنى الشهادة والتضحية بالمقابلة مع سياق الدمار والتخريب. فكل البؤرة الدلالية في الأسطر الشعرية تنتمي إلى حقل دلالي واحد وهو

الضياح. مما زاد تعميق هذه الدلالة مجيء الرمز بظلاله اللونية التي تعدّ بنية البؤرة في النصّ والتي تركز عليها الصور الجزئية لتحقيق معنى الضياح.

نلاحظ من خلال هذه الأسطر الشعرية أنّ الشاعر يتخذ من اللون دلالات ورموزاً استقاها من خارطة النصّ، فاللون الأحمر «ارتبط منذ القدم بدلالة غلبت عليه وهي الإيماء إلى لون الدّم وما يعنى من الصراع والقتل والموت والثورة والحرب» (الزواهرة، السابق: ٤٥) أراد الشاعر الفلسطيني من توظيف اللون الأحمر تصوير ما حلّ بالبلد من قتل وصراع محتدم بين الشعب والكيان الصهيوني وترسيم المجازر المشينة والممارسات الإرهابية للعدو الشرس من جرّاء تنشيط الأفكار ونقل المشاعر تجاه الواقع الفلسطيني وما يكتنفه من مشاكل وأزمات. نراه يستخدم توظيف اللون كتقنية ناجعة في سياق استنهاض الهمم وإثارة الأحاسيس والمشاعر الدفينة تجاه المجازر الدامية للتدليل على أنّ الحياة الكريمة تنشأ من خلال التضحية والجهد والعمل.

يتبين لنا من خلال إمعان النظر في هذه المدونة الشعرية أنّ الشاعر عمد إلى توظيف الأنماط المختلفة للون لخصوبة النص وإثرائه وللتعبير عن شعره النضالي وإنتاج الدلالات الحديثة التي تتلائم والقضايا الراهنة في الوطن المقهور. منها اللون الأبيض للدلالة على النقاء والطهارة لأبناء وطنه الذين يرزحون تحت وطأة الاحتلال، للإبانة عن معنى الإشراق والعفة، واللون الأسود للتعبير عن الكيان الصهيوني، والدلالة عن معنى الحزن والقلق، واللون الأخضر للتعبير عن الخصب والنماء وتجدد الحياة والخلود، والاستقرار ومواصلة النضال ضدّ العدو الإسرائيلي، واللون الأصفر للدلالة على الضعف والانكسار واللون الأزرق للدلالة على الأمل بالخلاص من العدو الغاشم وتارة يرمز هذا اللون إلى التقليل من اضطرابات وأزمات نفسية.

من النماذج الأخرى للترميز اللوني في شعر المقاومة ما يقول:

وحدائق الجورى تغرى من غوى فالحدّ محمّر الإهاب جميل

(الديوان، السابق: ٥٢)

وبساطنا للضيف أحمر لونه وعليه تنحر بالسيف عجول

(نفسه: ٥٣)

وحشائش الأحزان أضحت في ثياب حدادها حمراء

(نفسه: ٤٤)

من الواضح خلال هذا النسيج الشعري أنّ الشاعر اتخذ هذا اللون رمزاً للثورة والانبعاث والانفعال العاطفي معتقداً بأنّ الموت يمثّل سبيل التخلص والنجاة من براثن العدوّ والدّم هو السبيل الوحيد للتخلص من الذلّ والحزى وهو سبيل الفوز والانتصار. نراه يختار لفظة الدّم بعناية خاصة ولم يرده اعتباطياً وعفوياً، بل ينتقيه مع الاهتمام بالوظيفة الدلالية لهذا اللون الدالّ على التضحية والثأر والثورة الدموية المنشودة. هذا اللون -أعنى اللون الأحمر- يدلّ في طياته على معانٍ أخرى كحبّ التآخي والسلام الذي ترسب في كيان أبناء فلسطين، فالشاعر راح يشير إلى أنّ الإنسان الفلسطيني يحبّ من صميم القلب التصالح والهدوء في أنحاء العالم وينفر من سفك الدماء وقتل الأبرياء. من هنا نرى سيمح القاسم الذي يستخدم هذا اللون للتعبير عن نفس المعنى حيث يقول: أمشى في كفى / قصفة زيتون / وعلى كتفى / نعشى؟ وأنا ... أمشى / قلبي قمرٌ أحمر (القاسم، ١٩٩٣م: ج ١، ٢٤٧)

أمّا اللون الأحمر عند الشاعر المناضل "فاروق موسى" هو اللون الذي يعتبر رمزاً للعزة والمجد الخالد الذي لا يحصل إلا على أيدي الشهداء ويقول:

يا أيها البطل الشهيد المفتدى / والأرض تبني من دمائك / كل يوم معبداً

(موسى، ٢٠٠٣م: ١٦٤)

ينسجم توظيف اللون الأحمر مع طبيعة الحياة التي يعيشها الشعب الفلسطيني الذي ذاق مرارة الاحتلال والصراع مع العدوّ الإسرائيلي، و«لعلّ أبرز سمة للأحمر في الشعر الفلسطيني، ارتباطه بالدم، مما جعله لوناً مخفياً ومقدساً في آن واحد مما نحا في كثير من دلالاته منحى التحدى والثورة والصمود.» (عبيات وآخرون، ٢٠١٣م: ٥١)

هذا يدلّ على أنّ الشاعر يعيش واقعه بكل التفاصيل ويشعر بمعاناة الشعب ولم يكن راصداً أو ملتقطاً للمجتمع الإنساني، بل تفاعل مع الأحداث ويضيف إليها من خميرته الشعرية ليؤازر الرمز في استكمال الرؤية التي يريد توصيلها للمتلقّي.

تمتدّ الصياغة الشعرية في هذه المجموعة الشعرية بعد استحضار اللون الأحمر وحقوله الدلالية لتشمل الفنا والموت وإنتاج تكوينات التضحية والصدود، فالبنية الشعرية تعمق قيمة التضحية من خلال ترسيم غايتها المنشودة والنبيلة وهي الكرامة والتحرّر.

النتيجة

عمدت هذه الدراسة إلى تحليل الرمز بمستوياته المختلفة في الشعر الفلسطيني المقاوم وأخيراً توصلت إلى النتائج التي نرى فيها جانباً كبيراً وبارزاً من الأهمية:

١- يعبر الرمز عن المعادل الموضوعي لتجربة الشاعر الشعرية والشعورية، خاصة فيما يخص قضية الاحتلال والمعاناة النفسية والجسدية.

٢- عمد الشاعر الفلسطيني الحديث إلى توظيف الرموز ضمن بنية القصيدة إثر البواعث المختلفة، منها السيكولوجية، الاجتماعية، السياسية، والدينية. ومن هنا سلكت الرموز مسالك شتى، منها الدين، التاريخ، الطبيعة، والأدب.

٣- تمحور معظم الرموز حول قضية الاحتلال وما يعانيه الشعب من مرارة البطش والقهر، فلم تتعد عن الهموم الوطنية للشاعر الحديث، وهذا يدلّ على أنّ الصدود والمقاومة يرأس المواضيع الواردة في عملية الترميز. تمتّ تقنية الرمز بصلة وثيقة إلى الظروف السياسية أو اجتماعية أو واقع فرض نفسه على المجتمع الفلسطيني المعاصر من أجل مواكبة التطور السياسي والاجتماعي الذي يعيشه هذا الشعب.

٤- يمثّل عملية توظيف الرموز مدى قدرة الشاعر لامتلاك القدرات الإبداعية والأدوات الفنية ومدى اندماجه مع الحقيقة والواقع.

٥- استخدم الشاعر الحديث تقنية الترميز للتعبير عن المقاساة الروحية والنفسية والإبانة عن مدى انفعاله مع الواقع وتصوير القضايا الراهنة في المجتمع الفلسطيني بغية التأثير في المتلقّي بوصفه جزءاً فاعلاً في الخطاب الشعري، وإشراكه في الصور الرمزية وخلق الوجدان المشترك لخدمة الغرض التعبيري.

٦- اتجه الشاعر خلال الترميز إلى توظيف القناع وذلك بتوظيف الشخصيات

التاريخية والأدبية ليزداد عدد الرموز لديه وحاول عبر التوظيف التماهي مع الأقنعة. رمى من خلال ذلك إلى توظيف الألفاظ السهلة واللغة الشعرية البسيطة مبتعداً عن الكلمات المغلقة وغير المألوفة، فجاءت ألفاظه وتراكيبه مألوفة تعبر عن واقع الحياة المعيشية، ومن هنا تلعب اللغة دوراً محورياً ورئيساً في نقل التجربة الشعرية إلى المتلقى.

المصادر والمراجع

- جودة نصر، عاطف. (١٩٧٨م). الرمز الشعري عند الصوفية. ط١. بيروت: دار الأندلس.
- الخطيب التبريزي، محمد بن عبدالله. (١٩٩٤م). شرح ديوان أبي تمام، قَدّم له راجي الأسمر. ط٢. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الحنصالي، سعيد. (٢٠٠٥م). الاستعارات والشعر العربي الحديث. ط١. المغرب: دار توبقال للنشر والدار البيضاء.
- حشلاف، عثمان. (٢٠٠٠م). الرمز والدلالة في الشعر المغرب العربي المعاصر. الجزائر: منشورات التبين الجاحظية.
- ديوان العصف المأكول. (٢٠١٤م). غزّة: رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين.
- الريجات، عمر أحمد. (٢٠٠٩م). الأثر التوراتي في شعر محمود درويش. أردن: دار اليازوري.
- الزواهرة، ظاهر. (٢٠٠٨م). اللون ودلالاته في الشعر، الشعر الأردني نموذجاً. عمان: دار حامد.
- زياد، توفيق. (١٩٩٤م). صور من الأدب الشعبي الفلسطيني. ط٢. عكا: مطبعة أبو رحمون.
- العكبري، أبو البقاء. (١٩٣٩م). ديوان أبي الطيب المتنبي. مصر: منشورات مصطفى حليبي وأولاده.
- عيد، رجاء. (١٩٧٩م). دراسات في لغة الشعر رؤية نقدية. الإسكندرية: منشأة المعارف.
- عشرى زايد، علي. (٢٠٠٦م). استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- فاروق شريف، جلال. (١٩٧٦م). الشعر العربي الحديث. ط١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- فاعور، علي. (١٩٨٧م). شرح ديوان الفرزدق. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.
- القاسم، سميح. (١٩٩٣م). الأعمال الكاملة. بيروت: دار القلم.
- مواسي، فاروق. (٢٠٠٣م). الأعمال الكاملة. دمشق: مكتبة الريم.
- هاني، نصرالله. (٢٠٠٦م). البروج الرمزية (دراسة في رموز السياج الشخصية والخاصة). الأردن: عالم الكتب الحديثة.
- البحوث المنشورة
- عبيات، عاطي ومحمود شكيب أنصاري. (٢٠١٣م). «اللون ودلالته في الشعر الفلسطيني المقاوم». مجلة جامعة الخليل للبحوث. مج ٨. العدد ١. صص ٦١-٤٧.
- مقدمتقي، أمير. (٢٠١٣م). «الزيتون رمز المقاومة في الشعر الفلسطيني المعاصر». مجلة أدب عربي. جامعة طهران. العدد ١. السنة التاسعة. صص ٢٧٨-٢٦١.